

طه حسين ومجلة الكاتب المصرى

سِفْرٌ نفيس ، فى حقبة ناهضة ثقافياً ، رغم سوانح الأفول السياسى التى كانت تلوح فى الأفق ، منذرة ومتوعدة ، يناهضها الناس ، متطلعين إلى بشائر التحول، وصامدين - بفضل النهضة الثقافية - وصدورهم لا يقل روعةً عن لحظات زهوهم، كانت لحظات نهضة صامدة تمثلها أوفى تمثيل كوكبة لامعة ، حماستها حكمة ، وحكمتها حماسة بعد نضج السن واستحصاد الملكات ، تحمل فى أصلابها عراقة التراث ونبالته ، وتشرئب إلى المدى اللاحب والأفق الرحب ، وكأنها رأت أن تعوض الانكسارات السياسية بكثير من الوهج المتزن المضى . . ثلة كريمة على اختلاف منازعها ، وثقافاتهما ، مرتئية أن الثقافة أصفى نورا ، وأهدى سبيلا ، حين تشتجر نزعات السياسة ، وأهواء الحزبية الضيقة ، تحمل اعتزازاً ربما لم يتسن نظيره للأجيال التالية مجمعة على هدف كريم ، وطريق قاصد ، تمثلت فى أحمد لطفى السيد ، والعقاد وطه حسين ، والجارم والزيات والملازنى ، وشعراء أبوللو، وهيكل باشا ، وإخوان هذا الطراز .

وكان هؤلاء - على تفاوت - قد قرت لهم فكرة النهضة بعد شرة الشباب وحدثه ، وإن لم تخل من النضال الذى لم تتخل عنه الأمة آنذاك ، وكان طه حسين - كما كان كثير من رصفائه - يشتعل حماسةً وتوقداً، يناجز ويصارع ، واثقا شديد الثقة ، تتناش السهام فتزيده جلدأ ، يوقف - من قبل - عن التدريس فى الجامعة فلا يهن ولا يستخذى ، وحين تقاعد سنة ١٩٤٤ بسبب مقاله «القلب المغلق» لا يهادن ؛ لأن طبيعته مجبولة على القلق وإثارته «على قلق كأن الريح تحتى» ، كما يقول صديقه أبو الطيب .

فى تلك الأثناء يصدر مجلة «الكاتب المصرى» بعد انتهاء الحرب ، منذ أكتوبر ١٩٤٥ حتى مايو ١٩٤٨ . ولهذا قصة تروى : (نعتمد فى هذه الرواية على

مقدمة د. عبد العزيز شرف لمجلدات المجلة الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

«في سنة ١٩٤٥ تكونت شركة الكاتب المصرى للطبع والنشر والأدوات الكتابية، وهى شركة مساهمة مصرية ، كان يمتلكها سبعة أشخاص من آل هرارى الذين كانوا من الأسر اليهودية فى مصر ، ولم يأت اسم أحدهم فى أى تجمع صهيونى طوال وجودهم فى البلاد ، وعهدت الشركة إلى الدكتور طه حسين الإشراف على نشاطها الثقافى ، حين قررت إنشاء دار للنشر ومجلة شهرية باسمها» (مقدمة د. شرف ص ٢٣) .

وفى مستهل العدد الأول من المجلة «برنامج» يحدد خطتها ، والهدف منها ، وعمهور بتوقيع «الكاتب المصرى» أو كما نقول الآن «المحرر» ، وواضح أنه بقلم طه حسين ، فيه سماته وأسلوبه يقول فى بعضه : وقد اتخذت هذه الدار من الكاتب المصرى القديم اسماً لها وشعاراً ، وهذه المجلة تستمد برنامجها وخطتها وسيرتها من تاريخ مصر القديم والحديث ، ومن المهمة التى نهضت بها مصر منذ شاركت فى الحضارة الإنسانية العامة .

ثم أخذ البرنامج يرسم سبق مصر الثقافى ، وهى من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، ذات صلات وشيجة بأمم الحضارة ، ونهضت بمهمة التوسط بين الشرق والغرب فى شئون الثقافة والسياسة والاقتصاد ، ومضى يرصد دورها القديم من أيام اليونان مستأنفة دورها مع دمشق وبغداد وقرطبة ، وتمضى الآن بارزة الدور مع بلاد الشرق كله ومع بلاد الغرب كله .

وملموح فى هذه الكلمات تحديد موقع مصر ؛ حيث هى من بلدان البحر المتوسط كما حدده طه حسين فى «مستقبل الثقافة» وإن كان هنا يذكر إسهامها مع دمشق وبغداد وقرطبة المسلمة ، وهو رأى يتسم بكثير من الاتزان ، وتأخذ المجلة طابع طه حسين عامة من حيث الالتزام بالشدة وأخذ النفس بالجد ، مطالبة القراء أن يلتزموا بما التزمت به المجلة ، وتبرز «الدياجية» أيضاً موقف المجلة من الحرية التى تنعتها بالواسعة الكاملة السمحة ، فيما تنشر وفيما تختار من آثار القدماء والمحدثين ومن آثار الشرقيين والغربيين .

وهذا الأخذ بالجد طبع غالب على طه حسين ، إلا فيما حكاه عن نفسه وهو يكتب كتابه عن «المتنبى» ولعله كان يميل إلى المزاح لا الجد الوعر ، وإن كان المازنى قد شدد النكير عليه فى هذه الرسالة .

وارتأى البرنامج أيضاً أن من ثمار الحرية التى تلحد إليها عدم انحيازها لشعب دون شعب وفريق من العرب دون فريق ، ولا تقييد نفسها إلا بحقوق مصر والأمم العربية فى الكرامة والعزة والحياة الصالحة .

وقد برت المجلة بعهددها ، فجاءت أبوابها وفقاً لخطتها التنويرية ، تذيع جواهر التراث ، وطمحت ببصرها إلى الثقافة العالمية ، بل إنها قد اتفقت مع طائفة من كبار الأدباء الأوربيين والأمريكيين - كما جاء فى صفحتها الثانية - على أن يوافقوها بمقالات وقصص تكتب لها خاصة ؛ بحيث تنشر لأول مرة باللغة العربية قبل نشرها بأية لغة أخرى ؛ فيكون قراء هذه المجلة أسبق الناس إلى الوقوف على ثمرات عقول هؤلاء الكتاب . ترى كم مجلة صنعت هذا الصنيع أو تصنع هذا الآن؟

ولعبت المجلة دوراً بارزاً فى تقديم طائفة من شباب الشعراء والنقاد والمترجمين آنذاك ، غدا أكثرهم فيما بعد من شيوخ الجيل ، وإن كان بعضهم قد غير وجهته التى استهلها ، مثل عبد القادر القط وسهير القلماوى ؛ حيث عرفهما القارئ شاعرين أولاً ، وغدوا ناقدين ومؤرخين للأدب ، ولم يقف دور المجلة لدى الشعر والنقد ، بل عاجلت موضوعات الساعة كالقنبلة الذرية ، والشهريات الثقافية البارزة ، وهى باب ثابت من أبواب المجلة ، ولأن الدار التى تصدر عنها دار نشر . . فقد نشرت بعض كتب التراث ، والكتب المترجمة كالبخلاء للجاحظ ، والعقيدة والشريعة لجولد تسهير ، وطعام الآلهة لويلز والمقامر لدستوفسكى والباب الضيق لأندرية جيد ، وبعض الروايات لسعيد العريان ، وبعض فصول روايات طه حسين ، واحتوت المجلة أسماء لامعة أو لمعت فيما بعد ، مثل : على أدهم وعبد الرحمن صدقى ، ومحمد عبد الله عنان وسليمان حزين وبشر فارس ولويس عوض ويحيى حقى ومحمود عزمى ، وإبراهيم نجا وعلى النجدى ناصف وحسين فوزى وسلامة موسى ، ومحمد كامل حسين ، ووداد سكاكيني ويحيى الخشاب

وشكرى عياد وآخرين كثيرين .

وقد أحسنت هيئة الكتاب المصرية صنعاً حين نشرت هذه المجلة وغيرها مجموعة فى مجلدات ، فقد بعد عهد الناس بها ، وأصت مثل المخطوطات التى يعسر الوصول إليها ، وإذا تيسر الحصول عليها فإنما تكون فى الأغلب الأعم ناقصة مبتورة أو عبثت بها الأرضة ، أو الرطوبة أو عبثت يد الباحثين غير المسئولين أديباً وأخلاقياً ، حيث كانت هذه اليد تمتد بالبر للمقالات أو المواد المطلوبة ، قبل زمن التصوير ، وربما بعده أيضاً ، وقد عانيت رهقاً شديداً وأنا أعد بحثى عن المازنى الشاعر ، فكنت أقع على هذه الجرائم فى البلاغ والسياسة الأسبوعية والفجر الجديد وغيرها من الصحف والمجلات ، فإذا جاءت الهيئة لتنتشل البقية الباقية - وهى كثير - فإنما تسدى إلى هذا الجيل والتالى له يداً بيضاء ، حيث قارئ المجلد غير قارئ الدورية ، وهى أيضاً تقفنا على التاريخ المنسى لكثير من كتابنا ، الذين لم يسعفهم الزمن بجمع ما تناثر من تراثهم ، أو أغفلوه عمداً فلم يجمعوه ، وأذكر هنا أن الصديق العالم الجليل الدكتور محمد أبو الأنوار قد جمع طائفة صالحة من مقالات سحب النسيان ذيله عليها ، منسوخة بقلمه أو بأقلام النساخ قبل زمن التصوير . وهى كذلك - أى الهيئة - تدلنا قاصدة أو غير قاصدة على طريقة الكتابة آنذاك ، وعلى ذوق الكتاب وذوق الناس أيضاً الذين يوجه إليهم ما يكتب ، وعلى الرصانة الجادة التى يتناول بها الكتاب الفكرة والأداء ، وكلها فيما نعتقد فى صالح ذلك الجيل ، الذى خلف من بعده خلف أضاع تراثاً كثيراً ، وافتقد همة تمتع بها سلفه الكريم ، ويكفى أن نعلم أن طائفة من كتابنا آنذاك كانت كتبهم مقالات ذاعت فى المجلات وفى الإذاعة جمعوها ؛ حيث كان الجهد المبذول فيها كالجهد المبذول فى الكتب المبسوطه ، بيد أن الأغلبية لم تجمع هذا المنثور أو أغفلته كما قلنا آنفاً ، ومن ثم يكون فضل نشر المجلدات كاملة .

لكن لغطاً أثير حول هذه المجلة ، وجهات تمويلها ، وقد رد عليه طه حسين فى أوامه ، وتتعلق القضية بتمويل آل هرارى لها وهم من اليهود المصريين ، وهى شبهة واردة ، حيث توقفت المجلة سنة ١٩٤٨ سنة الهزيمة العربية النكراء فى

فلسطين ، وجاء رد طه حسين ساخرًا جدًا حين ذكر أنه يخدم الصهيونية ؛ لأنه أحيا الأدب العربي القديم وأشياء تتصل بعلوم القرآن الكريم ، وأرجع التهمة إلى المنافسة التجارية والضغينة السياسية والحسد البغيض ، وذكر أنه لم يقبل العمل إلا بعد أن استقصى وأحسن الاستقصاء ، وتبين أن الأمر لا يتصل ولا يمكن أن يتصل بالصهيونية من قريب أو بعيد ، وتحدى أن يجد الناس فيها ما يخدم الصهيونية بل سيرون فيها خصومة عنيفة لها ، ودفاعًا عن العرب في وطنهم فلسطين .

ويمكن ألا نعير طه حسين تصديقًا لمقولته ، لأنه يدافع عن نفسه ، لولا أنا لم نجد في المجلة أى دليل لاتهام ، وقد دافع لويس عوض عن مقاصد طه حسين ، ولكنه تشكك فى نية أصحاب الدار بشكل غير مباشر (راجع ص ٦٢ من مقدمة د. شرف) .

ينبغى - فى رأينا التفرقة بين اليهودية والصهيونية ؛ حيث كان اليهود المصريون جزءًا من نسيج المجتمع المصرى المتسامح دائماً وفقاً لطبيعته وتاريخه ، وكانوا يحظون بقدر هائل من الشهرة فى مجالات الاقتصاد والمال ، ومحللتهم التجارية الكبرى لا تزال شاهد عيان على ذلك ولهم بلا ريب أثرهم فى النفاذ إلى الحياة السياسية ، شأن رجال المال دائماً فى كل قطر وقبيل بصرف النظر عن الديانة ، وفى مجال الثقافة كان حاييم ناحوم عضواً بارزاً فى أكبر مؤسسة علمية فى مصر (المجمع اللغوى) ، وحين مات رثاه العقاد العدو الأكبر للصهيونية فى العالم العربى كله ، ولو كانت هناك شبهة لأحجم العقاد حتى عن مجاملة يسيرة .

وليس من الضرورى أن يكون كتاب المجلة - مع افتراض صدق التهمة - عارفين ببواطن الأمور حيث كانوا فى ذروة الوطنية والعروبة ، ولا يمكن أن تحوم حولهم أى ريبة ، وكان المصريون حتى ذلك التاريخ ١٩٤٨ لا يرون حرجاً فى التعامل مع اليهود المصريين ؛ حيث كانوا أبناء وطن واحد ، وللعقاد رحلة إلى فلسطين فى ١٩٤٥ ، وكتب عنها مقالات مسهبة جمعت فى كتابه «حياة قلم» الصادر بعد وفاته ، وإن كانت له رسالة عن «رجعة أبى العلاء» صدرت ١٩٣٩ ، ذكر فيها على لسان المعرى رفضه لزيارة أرض أجلى عنها العرب ، ونود أن نصل

من ذلك إلى أن الناس - وخاصة كبار الكتاب - كانوا يستشعرون الخطر الصهيوني قبل ١٩٤٨ ، وإن كانوا لسماحتهم يعاملون يهود مصر معاملة المواطنة . . كما نود أن نخلص من ذلك أن طه حسين ، وهو في ذؤابة المثقفين المصريين كان يستشعر مثل هذا الخطر خلافاً لما كان يراه عبد المنعم شمس من أنه كتب منبهاً أستاذه طه حسين الى خطر المجلة وارتباطها باليهود ، وأورد الأستاذ سامح كريم فى مقاله بالأهرام فى ١٩٨٨/١٢/٩ دفاعاً جيداً وموضوعياً عن طه حسين ، ونذكر هنا أن شمس أراد الدفاع عن أستاذه فاتهمه بالغفلة على حين كان طه واعياً منذ الوهلة الأولى حين نشر فى مجلة الاثنين فى ١٩٤٥/١٠/٨ ، شهر صدور العدد الأول من المجلة دفاعاً عن نفسه وعن المجلة ، ومعه كل الحق ، وختم أعدادها بقوله :
والآن وقد انتهى عمر هذه المجلة . . فإن أعدادها بين أيدي القراء فهم لا يرون فيها إلا دفاعاً عن مصر والعروبة .

كان طه حسين يدافع عن شبهات واتهامات تركن إلى سماع دون تحقق ، وهو ما يرفضه منهج طه حسين ويرفضه كل منهج قويم ، والمحك الذى لا يخطئ فى رأينا دراسة مادة المجلة ، وكلها تدفع تلك الظنة الباغية ، ولم يكن لليهود ما لهم الآن من شرة وطغيان ، ولم يكن هناك ما يدفع شاعراً مثل ابن البواب الذى يرى أن الفلك قد تهود فى أيامه : أيام الدولة الفاطمية «تهودوا قد تهود الفلك» ، لأن لمصر عاصماً لا يهوى بها ذلك المهوى الوخيم ، وإن كانت الثقة المفرطة سلاحاً ذا حدين كما يقولون .

ولعل الحوم حول الشبهات هو الذى أرت هذه التهمة ، لكن طه حسين - وهو غير ظنين عندنا - لا يمكن أن نتزعه من فطرته التى ذراه الله عليها ، فهو لا ينكص حين لا يكون هناك مفر من الإقدام ، وهو رجل حديد القلب ، جرى اللسان ، عظيم التحدى فأقدم غير هيباب ولا وجل ، ما دامت له رسالة تنويرية يؤمن بها ، ويقود إليها الناس ، وإذا استقام له هذا الهدف فلا تلبث له تجاه الظنون والتهم ، بل يدوسها دوساً وصولاً إلى غايته ، ما تخلف وما نكص .

غير أننا نتساءل ؛ لماذا لم يستكتب طه حسين العقاد فى أى عدد من أعداد مجلته ، ورسالتها مجددة ورائدة ، وهو يدري أن العقاد لن يقبل الكتابة لديه

دون دعوة منه حارة وصادقة ، وهما صديقان لدودان - إن صح النعت - ولهما مجاملات شهدها التاريخ الأدبي ، مع أن بعض تلاميذه كانوا يكتبون بها مثل على أدهم وعبد الرحمن صدقي ، ومحمد غلاب - كان الأخير عدوه منذ مجلة النهضة الفكرية ١٩٣١ بعد خروج العقاد من السجن ، ثم فاء إليه ودوداً ومعجباً به .

نود أن نستخلص من ذلك بعض الرؤى المحتملة : لعل العقاد لم يشأ أن تثور حوله شبهة ، مع أنه رثى حاييم ناحوم ، أو لعل طه دعاه للكتابة واعتذر العقاد ، أو لعل دعوة لم توجه إليه أصلاً ، غير أن العقاد لو قرت لديه عقيدة بأن المجلة متهممة لنصح - على الأقل - مرديه ألا يكتبوا درءاً لهذه الشبهة . . أما وأنه لم يصنع ، فإن موقف العقاد من أصدقائه الكاتبين فى المجلة يعد دفاعاً عن طه حسين وعن مجلته .

ولعلنا حين نستعرض بعض المجلات المشبوهة فى بعض البلدان ، وموقف بعض الجهات منها، مثل : مجلة «شعر» و«حوار» ، والمجلات الصفراء المعاصرة ، ومساعى الإبراشى باشا فى عالم الأدب . . لرأينا أننا نطلب من طه حسين أن يكون من الملائكة المقربين ، فى حين أن مناوئيه فى هذا من الشياطين الأردلين حين يتكفون موائد اليهود الأمريكيين ، أو الأمريكيين الصهيونيين ، ولا الضالين آمين!!

الطاهر مكي: الرجل والجائزة

كنا نستمتع إلى شيخنا العقاد مازحاً صنوه الدكاترة زكى مبارك ، الذى كان يدل على العقاد بألقابه : «يامولانا أنت حصلت على شهادة من الأعاجم أنك تعرف العربية» وكنا نغرب فى الضحك والمقولة غير صادقة فيما يخص زكى مبارك . إلا أنه المزاح !!

لم نكن ندرى أن المقولة صادقة إلى أن صادفنا أساتذة كثيرين يعبرون البحر ، ويحرزون اللقب ، ولكنهم ليسوا بأفضل ممن أحرزوه هنا ، بل ربما لم يساووهم ، بعض هؤلاء تمهر شهاداتهم بخاتم «لا يحق لحامله العمل فى الجامعات الإسبانية» مثلاً .

لكن الأمر على غير ذلك مع أستاذنا الدكتور الطاهر مكي ، الذى أبى إلا أن يحرز «دكتوراه الدولة» من جامعة مدريد المركزية ، وأن يكون تقديره «امتيازاً» ، وكأين من أساتذة حصلوا على هذا اللقب ، وقعدت بهم الهمم أن يكون لهذه الدرجة صدى علمى يدل على أن صاحبها عبر البحر وأفاد ، بيد أن الطاهر مكي رأى أن تلك الدرجة بداية ، وخشى من مقولة العقاد ، فتصدى فى همة صابرة لاتبحث عن الجزاء ، بل رأى أن الجزاء الحقيقى أن يعمل ، ويسعده أن يعمل الآخرون .

تخصص الرجل فى الدراسات الأندلسية ، وحقلها عسير وغامض ، وتوقف أغلب الناس عند الأسى العاطفى الذى يغمرنا حين نتناول الأندلس ، فإذا به - مع هذا الأسى العاطفى - يعرف الطريق جيداً ، فتصدى للدراسات الأندلسية التى عاناها المستشرقون الإسبان والفرنسيون والألمان ، وترجمها من لغتها الأصلية أو من لغات وسيطة ، وهذه أول دلالة على أنه لم يقف عند مزحة العقاد الثقيلة .

والترجمات صعبة بالنسبة للمترجم المحترف ولقارئه أيضاً ، لكن ترجمة مكي نفذت إلى لباب النص ، وتلبست روح المؤلف ؛ خاصة لمن ترجم لهم فهم أدباء

مبدعون فى لغتهم قبل أن يكونوا مستشرقين ، وأشهد أننى كنت أتوقف مراراً أمام النص الأسمى ، مقارناً إياه بالترجمة فأرى عجباً مذهلاً ، فلغة رجل مثل غومث ، وفون شاك بترجمة باليرا صعبة جداً ، وإذا بى أجد ترجمة مكى تناصيها فى لغة عربية ، كأن العبارة الأجنبية لم تعرف غير العربية ولم تنبت إلا فيها . وبعض الأساتذة يقفون عند الترجمة ، إلا أن مكى بحواشيه القيمة يضيف إلى النص ويقوم الرأى ، ناقداً ومعللاً ، ومضيفاً فى تواضع جم ، وإنصاف حصيف ، والذين يقفون عند الترجمة بحواشيه كثيرون أيضاً ، لأنهم حين يكتبون مؤلفين لا تبدو آثار قراءاتهم فى لغة أجنبية ، إلا أن مكى - مؤلفاً ومترجماً - استطاع أن يوازن بين هاتين الملكتين فى وفاق عجيب ، وكأننى به يؤكد أن الثقافة الإنسانية واحدة حين تمتزج فى عقل مثل عقله ، وفى وجدان مثل وجدانه ، وأؤكد الوجدان هنا ، لأن ترجماته الإبداعية شعراً ونثراً إنما هى أدب من النمط العالى .

وإذا كانت المنظومة العلمية عند الطاهر مكى بهذا الطراز . . فإن هذه المنظومة مفرغة فى قالب إنسانى قليل النظير فى هذا الزمن ؛ لأن الطاهر مكى فارس من فرسان العصور القديمة يعيش بيننا زاهداً فى المتاع الرخيص ، معانقاً للحياة وأشواقها العليا تطل عليه ويطل عليها عبر قصيدة جميلة محكمة ، أو دراسة أصيلة . أو عبر ود صاف منخول ، ولذلك تجده دائماً فى عزلة مأنوسة وفى أنس معتزل .

لقد كان حصوله على الجائزة تقديراً لهذا الجهد الكبير ، وتويجاً لرحلة علمية مضية ، ورحلة إنسانية راقية ، وهذا التقدير قيمة تضاف إلى الجائزة حين تسعى إلى مكى ؛ لأنه لم يسع إليها ، وليس من ذوى المناصب الحكومية أو غير الحكومية حتى تسعى إليه لهذا السبب ، وهى شهادة على أن فى هذه الأمة بقايا خير ؛ لأنها تقدر نفسها حين تقدر رجلاً مثل الطاهر مكى ، الذى أثبت أن مقولة العقاد لا تصدق عليه ولا على قرنائه من العاملين المخلصين .

فى ميزان النقد

أحمد مستجير عالماً وأديباً

ملكة الشاعر قريب من ملكة العالم ، لا تدابر كل منهما الأخرى إلا لدى خفاف الشعراء وخفاف العلماء ، يجمعهما معا محاولة الكشف عن المجهول ، والتعبير عنه أو تفسيره ، ويتوسلان إليه بطاقة الخيال ، وإن تشعبت بهما المسالك فيما بعد .

وأحمد مستجير - عميد كلية الزراعة الأسبق ، وعضو مجمع اللغة العربية - نسيج وحده الآن ، التقت فيه الملكتان التقاء تكامل وامتزاج ، لا التقاء ، تنافر وتباين ، وأسعدت كل منهما صاحبتهما ، حيث ينطلق لسان الشاعر حين يتخفى فى حجاب العالم ، وحين يضارع تخيل الشاعر تخيل العالم أو تفسح كل ملكة السبيل لأختها حين تضيق السبل أو تتسع ، ضيق منافذ أو اتساع تيه ، فتذكر إحداهما الأخرى وقد بدأ الرجل حياته شاعراً على عادة أبناء جيله ، يهيم عشقاً رومانسياً ، يضبطه فيما بعد تخصصه العلمى ، ونضح هذا الهيام وذلك الضبط فيما خطته يراعتة ، حين يتحدث عن ملامح من سيرة حياته ، وعشقه للطبيعة ، أو حين يفسر ظواهر الطبيعة والهندسة الوراثية ، مؤلفاً ومترجماً من الطراز الأول؛ حيث تسعفه ملكته اللغوية فينقل إلى العربية ثمرات العلوم الأجنبية ، فى استقامة بيان ونصاعة أسلوب ، وحيث لا تضيع قامته بين قامات الآخرين ، معلقاً وشارحاً ، وناقداً ، وتلك هى الفائدة المرجحة من الترجمة ، حيث يلجها معتصماً بيقينه فى علمه وفى لغته لا يتيه فى الزحام .

ولأحمد مستجير سلسلة رائقة من خمسة أجزاء ، عنوانها فى بحور العلم ، رابع هذه الأجزاء عنوانه الفرعى «قراءة فى كتابنا الوراثى» فيه مقدمة شائقة عن سيرة حياته ، كتبها قلم شاعر ، وبداهة عالم ، وفيها مشاهد تسرى فيها أعراق الشعر وإن كتبت نثراً ، ويعالج المؤلف قضايا كثيرة شائكة لا تستعصى على غير المتخصصين ، ولا يتأبى عليها أهل الاختصاص ، يتحدث فيها عن الإجهاض وعلم الوراثة الحديث والاستنساخ وأصل الأنواع ، ويخشى الرجل أن تجور الهندسة الوراثية على الجانب الأخلاقى والإنسانى ، لكنه يستعلى على هذه الخشية

حين توجه المعارف الحديثة إلى سعادة الإنسان وهذا ما يحاوله المؤلف ، مقترحاً حلولاً كثيرة لمأساة الجنس البشري ، جامعاً في حديثه بين حماسة الشاعر ، وبداهة العالم ، وخشوع المؤمن ، وزكاة المتدين .

وختم هذا الكتاب بحديث عن مشروع رياضى للعروض الخليلي ، وللمؤلف رسالة سابقة فى هذا المجال ، وحاول أن يبسط قواعد العروض وتفاعيله بمنطق الرياضة ، غير أنه صعبها محاولاً الرد على الشذوذات التى تعترض مشروعه غير أن الشذوذات تبقى مطلة برأسها ، وهو لو استقام له هذا الاقتراح . . فلن يستقيم له تطبيقه على الشعر الحر ، وفيه خروجات غير محسوبة لأنها تسيبت فخرجت على النسق ، كما أن المؤلف ينسب بحرّاً إلى شوقى ، تفعيلاته «مستفعلن فاعلن فاعلن» وأولى أن ينسبه إلى ابن الحناط الكفيف الأندلسى ، وقصيدته : أقصر عن لومى اللائم لما درى أننى هائم ، وقد كتبنا عن هذا البحر حين كتب منه عبده بدوى ونازك الملائكة ، وادعيا أنه من ابتداءهما ، وأخذ كلامنا بعض مدرسى العروض ، دون إشارة إلى من تحدث عنه .

وفى الكتاب حديث عن داروين ، وتحليل لكتابه ، ويختتم المؤلف هذا الحديث بترجمة مقطع من قصيدة توماس هاردى ، وقد سبق أن ترجمها العقاد ، ونحن نزعم أن ترجمة العقاد أشعر ، ولعل هذا الحكم لا يزعج الدكتور مستجير ، فربما كانت ترجمته أدق ، وكانت ترجمة العقاد وراء قصيدة لسيد قطب وحمزة شحاتة السعودى ، ولعل فى إيراد المقطعين دليلاً على ما نريد من شعرية الترجمة أو دقة الترجمة ، يقول مستجير :

«إذا ما بزغت الشمس فمضيت أرقب الغدير ، والحقل والقطعان والشجرة المهجورة بدت لى جميعاً وكأنها تحدى فى كمثل أطفال بمدرسة عوقبوا فجلسوا صامتين» ، ويقول العقاد : «إذا طلع الفجر ، ونظرت إلى الطبيعة المصبحة جدولا وحقلا وقطيعة وشجرا موحشا ، رأيت كأنما هى أطفال مكبوحة على مقاعد الدراسة تشخص إليّ» وكأنما قد طالت عليها ثقلة الأستاذ فى أساليبه فبردت حرارتها ، ورائت على وجوها السامة والضجر والإعياء» .

تحية لأحمد مستجير الذى أدب العلم وشعره ، وجعل من الشعر علم الدرس والنفس والضمير .

حول حقيقة التنوير

الساحة مكتظة الآن بالأراء المتصارعة حول حقيقة التنوير ، ولكل وجهة هو موليتها ، حيث ثقافته ، ومطرح فكره ، ومنازع ميوله ، إلى درجة أن كثيراً من المصطلحات المستخدمة لدى كل فريق مدخولة ، ودرج الناس على قبولها مسلمين بها ، ولو أنهم أمعنوا النظر قليلاً وتركوا الإلْفَ ، والكسل المطمئن لرأوها لا تثبت للتمحيص ، من ذلك مثلاً خرافة «الأصالة والمعاصرة» التي شاعت ورأى فيها الناس خاتم سليمان الذي يفض الاشتباك ، ونحن نعتقد أن كلمة «الأصالة» وحدها تغنى عن الكلمة المعطوفة عليها ، لأن كل أصيل معاصر بالضرورة ، حتى لو كان من آلاف السنين فالأصالة "ORIGINALIDAD" تعنى الابتكار والابتداع ، وتنفى المسخ والتقليد ، فلا يكون المرء نسخة من غيره ، وإذا عبر في هذه الحالة . . فإنما يعبر عن ذات الإنسان خالياً من التشويه والتقليد ، وبالضرورة - والحال هذه- يكون معاصراً ، وكأين من معاصرين لنا ليسوا بهذه الأصالة ، فكأنهم غير معاصرين ، لا نعرفهم إلا أجراماً تتحرك ، وليس لهم علاقة بالإنسان المنتسبين إليه .

ومع أن هذه المسألة شديدة الإبانة . . إلا أن الناس درجوا على «العطف» وهو - بداهة - يقتضى المغايرة مع المعطوف عليه !! .

هذا مثل مما يملأ الساحة ، ونحن موقنون أننا - وهو سبب أزمة كبيرة - لا نتحدث لغة مشتركة ولا شبيهة بها ، وأن المصطلح المجعول به للتقييد لا نكاد نعرفه .

ومما يخفى على كثير من الناس أيضاً مسألة التنوير ، مع كثرة اللاغطين بها ، ويبدو أننا لانزال ندور في حقل التخمين والحيرة ، التي تلابس الأمم في لحظات الانعطاف التاريخي ، ولواعج التردد والحيرة ، ونكاد نقول : الإحباط ، وهو حقيق بإطفاء جذوة التنوير التي نبحت عنها .

درج المؤرخون على جعل الحملة الفرنسية على مصر بداية النهضة والتنوير ، مرتين أن نابليون اصطحب معه علماء قيدوا معارفهم في «وصف مصر» وأدخل المطبعة ، ثم توالى الأحداث مع محمد على وخلفائه، فكانت البعثات إلى أوروبا، وجلب الأساتذة الأجانب للتدريس في مصر .

هذا الرأي يحظى بقبول شديد لدى كثير من المؤرخين العرب ، وهو رأى له وجاهته؛ خاصة وأن الناس تذكر جهود رفاة الطهطاوى فى الترجمة والتأليف وإنشاء المدارس والصحف ، وخلفاء رفاة ممن تعلموا فى أوربا ، أو الآخذين بشقاقتها وهم فى بلادهم ، ولهؤلاء صوت مسموع حتى الآن فى المدارس والجامعات ، والمنابر الإعلامية والثقافية، وهم - فى أغلبهم - يستحقون الإشادة والتتوية إذا خلصت نياتهم ، ولم يكونوا أبقا للاستشراق والأعاجم وذيولاً لهم .

بيد أنه من الحتم أن نأخذ فى الاعتبار - إذا قبلنا هذا الرأى - أن الحملة الفرنسية اقتصر دورها على تنبيه أمة لديها استعداد هائل للتنبية ، وفيها رجال أيقاظ ، فيهم غيرة وأنفة ؛ خاصة إذا علمنا أن ثورات قامت تناهض الحملة وتقتل قائداً منها ، وظلت فحسب ثلاث سنوات وهى ليست زمناً فى عمر الأمم ، فضلاً عن ذلك أن الأمة كانت قد بدأت تستعد للنهضة قبل قدوم الحملة .

وهذا بيانه وجهة النظر الأخرى ، التى رأت فى الحملة شرأ محضاً ، غزا دار الإسلام ليقتل فيها نهضة وليدة ، فالأعاجم كانوا يترددون على ديار الإسلام - وخاصة مصر - يتدسون بين علمائها ليقفوا على ما عندهم ، ويكتبوا «تقارير» إلى قارتهم بما عليه حال تلك الديار ، يقول العلامة محمود شاكر «أبو فهر»! «هب من جوف الغفوة أشتات من رجال أيقظتهم هدة هذا التقوض ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غفوتها ، رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم بلا تواطؤ بينهم ، كانوا رجالاً أيقاظا مفرقين فى جنبات أرض مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه فى قرارة أنفسهم مبهماً من خطر محدق أحسوا الخطر ، فرموا إصلاح الخلل الواقع فى حياة دار الإسلام : خلل «اللغة» وخلل «العقيدة» وخلل علوم «الدين» و«خلل علوم الحضارة» . . وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم ، وبهمة وجد أرادوا أن

يدخلوا الأمة فى «عصر النهضة» نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام ، من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم لك هنا مجرد ذكر باختصار :

(١) البغدادى : صاحب خزانة الأدب ١٦٢٠ - ١٦٨٣ فى مصر .

(٢) الجبرتى الكبير : ١٦٩٨ - ١٧٧٤ فى مصر .

(٣) ابن عبد الوهاب : ١٧٠٣ - ١٧٩٢ فى جزيرة العرب .

(٤) المرتضى الزبيدى : صاحب تاج العروس ١٧٣٢ - ١٧٩٠ فى الهند ومصر .

(٥) الشوكانى : ١٧٦٠ - ١٨٣٤ فى اليمن .

وهؤلاء - على تفاوت - هم كانوا رسل النهضة العربية والإسلامية ، كل فى مجاله فى علوم اللغة والفقه والعقيدة وعلوم الحضارة ؛ خاصة الجبرتى الكبير والد المؤرخ عبد الرحمن الذى يقول عن أبيه : «وحضر إليه طلاب من الإفرنج، وقرأوا عليه الهندسة ، وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك» .

ويرى أبو فهر - ومعه كثير من الحق - أن هؤلاء الطلاب كانوا هم المستشرقين الذين تجسسوا لحساب قاداتهم على ديار الإسلام ، وحين رأوا هذه النهضة التى لا بد أن تؤتى أكلها بعد حين أرادوا وأدها وإطفاءها . فكانت الحملة الفرنسية ، وما جرت من خراب وقتل لتلاميذ هؤلاء المشايخ الكبار ، وسرقة ما تحويه خزائن القصور والمساجد والأضرحة من كتب نفيسة ، لا نزال نحن نطلبها من مظانها الأوربية ، ونهب هذه الكتب محاولة خبيثة لإيقاف الدم المتدفق فى عروق النهضة الوليدة ، إلا أن تكون «نهضة» على غرار نهضتهم هم ، وهنا لا خطر عليهم من الإسلام والعرب .

ورؤية أبى فھر مناقضة لكثير من المسلمات ، التي يدين بها الباحثون في جملتهم والمعتدلون منهم يحاولون جعل الحملة الفرنسية مثيراً فقط ومنبهاً ، أما الغلاة - وهم الجمهرة - فلا يرون إلا الخير كله في الحملة ، والاتصال بها والأخذ عنهم .

ونعتقد أن الحملة كانت «كالمصل» من جهة ، وخراباً من جهة أخرى ، وأنا نميل إلى ترجيح كفة الأستاذ شاكر في مشتجر هذه الآراء ، دون أن يعنى ذلك رفض ما عند الأوربيين . . بل لا بد من فتح منافذ الثقافة دون تمييز ، والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، ولكن مع نخل وتمييز ، ودقة نظر ، وحصافة ورؤية ، فما هو عند الأوربيين ليس شراً محضاً ، بل فيه خير كثير لمن يرى .

وربما كان هذا «الاعتدال» هو منهج الأستاذ الإمام محمد عبده ، الذى حارب الجمود والغلو فية ، وأيد التجديد والاجتهاد في الدين ، وعدم الوقوف على ما قاله السلف لمجرد أنه قديم ، والحق أن فكر الأستاذ الإمام فكر إسلامى صحيح ، لا يلغى العقل ، ولا يشله بقيود السلف إلا إذا كانت صحيحة يتدفق منها الدم النقى ، وبذلك تختلط بالدماء المجددة .

ولعل فكر الأستاذ العقاد - وهو تلميذ للأستاذ الإمام - من أصوب الأفكار التى ينبغى أن تكون هادياً للأمة ، وأن أفكاره في العقيدة والتاريخ ، وتراجم الرجال ، واللغة ، والشعر ، والنقد - خاصة بعد انتهاء فورة الشباب وحماسه - هى قوام بين السلفية والتجديد ، وقد أعاد إلى هذه الأمة الثقة بتاريخها وأدبها ودينها ، مرتشياً أن دور المسلمين في طور الصمود في لحظات الانكسار ، لا يقل عن دورهم في لحظات التحدى والجسارة والفتوحات العظيمة ، وهذا هو الذى وقى هذه الأمة من التلاشى والانحسار الشديد .

ثمة آخرون يسيرون في هذا الدرب القاصد من جيل الإمام مثل البارودى ، ومن بعده رجال حملوا راية التنوير الحقيقى في مجالات الشعر والنقد والتاريخ ، ومقارنة الأديان ، والسياسة والفقه ، وعلوم الحضارة وغير ذلك .

لكن في كثير من الحالات ، والأمة تمر بأطوار مختلفة بين شد وجذب ، تبزغ دعوات كالفرعونية في مصر ، وكتابة العربية بحروف لاتينية ، وإنكار الشعر

الجاهلى ، والتطاول على اعلام الإسلام ، ودعوات أخرى حديثة كالتطرف الدينى المغالى فيه كرد فعل لتطرف آخر ، وقصيدة النثر وغير ذلك من الدعاوى المنكرة التى يرفضها الاعتدال ، والنظر الصحيح ، وأن صلاح الأمة لا يكون إلا بما صلح به أولها استقامة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف ، إذا نقلنا العبارة من السياسة إلى سياسة الأدب والفكر عموماً .

ونعتقد أن مثل هذه الدعوات تصدر أحياناً بباعث خبيث ، وأحياناً بغفلة وكلاهما سواء ، كما نعتقد أن مواجهة التطرف الناشب فيم مصر الآن مثلاً لا يكون بفكر مرفوض من «الاعتدال» كأن «نواجه» هؤلاء بنشر سلسلة كتب التنوير كما يطلقون عليها ، وكثير منها غثٌ تجاوزه الزمن ، ويعبر بعضه عن نزعة متطرفة تميل إلى الغرب مثلاً ميلاً شديداً ، بل إن مواجهته - وللمواجهة أساليب كثيرة - تكون بالفكر المعتدل ، الذى يقف على قمته الأستاذ الإمام محمد عبده والأستاذ العقاد ، والشيخ الغزالي ، والشيخ أبو زهرة ، وطه حسين فى إسلامياته ، ونقده الأدبى الخالى من الجموح ، والمازنى ، والزيات وإخوان هذا الطراز ، وأن نحى فى الأمة ميولاً لا قوام لها بغيره ، وهى الإفادة البصيرة من التراث ، والوقوف على منافذ الفكر الأوربى بحصافة شديدة ، وعيون مفتوحة ، ونعتقد أن هذه الأمة فى أمس الحاجة إلى العناية بلفتها - وهى عرضها - وإنها إذا عرفت لغتها وأدبها فطنت إلى جوهرها وإلى دينها وكتابها ، الكريم الذى هو قمة الإعجاز فى هذه اللغة .

نعتقد أن هذا هو التنوير الذى نسعى إليه ، ونعمل له ، وما عدا ذلك فهو ضلال فى الرؤية ، وزيف فى الفكر وعماية مهلكة ، وعلينا أن نرى ما يراد بنا ويخطط لنا بيدنا وبيد عمرو .

الجوائز الأدبية التقديرهم الكاتب الأصيل

لعل أفضل جائزة يتلقاها الكاتب أن يكون مقروءاً ، وأن يؤثر في أمته بوصول رسالته إليها ، وحسبه أن تصل إليها الجائزة من الدولة نائبة عن الأمة التي قدرته ، مقرونة هذه الجائزة بأوانها من التشجيع أو التقدير ، لا بعد فوات الأوان ، ويكون قد أحرزها من ليسوا نظراء الكاتب المجاز ؛ إذ تنعدم النصفة ، ويستوى من لا يستحق بمن يستحق .

وشر ما قنصته راحتى قنص

شهب البزاة سواء فيه والرخم

وأحياناً تصل الجائزة بعد إبانها ، فتكون كطوق النجاة ، يرمى بعد بلوغ البر كما قال برنارد شو .

والجوائز خير لمن تصل إليه وللجهة المانحة أيضاً ؛ لأنها تدفع الكاتب في طور التشجيع إلى الإبتقان والحماسة وتدفعه في طور التقدير إلى شيء - ولا نقول كل- من الرضا عن رحلته الطويلة ؛ خاصة في النتاج الأدبي الذي يحتاج إلى مكث كثير لحصاد التقدير ، وليس كما هو الحال في الفنون الأخرى سمعية وبصرية ؛ إذ يصادف ذووها غالباً تقديراً وإعجاباً من المشاهدين أو السامعين ، كما أنها خير للجهة المانحة ، حيث هي دلالة على حسن الرأى ، وأن التقدير للآخرين النابهين من الأمة ، إنما هو في جوهره تقدير لتلك الجهة ؛ إذ هي مشاركة في بعض الفضل الذي تسديه ، والذي تضعه في موضعه الصحيح .

وقد قيل كلام كثير من الجوائز محلية وعالمية ، وربما كان من أهم ما يقال إنها كثيراً ما تجتاز المستحقين إلى غيرهم ، أو على الأقل تهمل بعض المستحقين لحساب البعض الآخر ، وآية ذلك في جائزة نوبل مثلا أنها تخطت أسماء كبيرة ، لأصحابها مكانة باذخة في الأدب العالمية ، مثل توماس هاردى وأونامونو

ونظرائهما ، بيد أنها فى هذا التخطى تثبت أمرًا جليلاً ، هو أن الجوائز - مهما عظمت - لا تضيف إلى الكاتب مكانة لم يبلغها قبل الجائزة ، وخاصة جائزة القراء التى تبقى بعد فوات هالة الحفلات ، والبريق الإعلامى ، وأنها لا تخلق أديباً إلا إذا كان مؤهلاً بحكم ملكاته لبلوغ هذا الأوج ، ربما تحجب عنه بعض الخمول - إعلامياً - لكنه حجب موقوت ، بدليل أن كثيرين ممن أحرزوا نوبل - مثلاً - لا يضارعون فى الشهرة والذيع بعض الأسماء التى لم تحرزها ، وليسوا مثلهم أيضاً فى المكانة الأدبية . . كل هذا له دلالة ، ودلالته القريبة أن مثل هذه الجوائز ليست المحك الوحيد لقيمة الأديب أو المفكر ، وأن القيمة المستمدة منها ربما تنصل ألوانها بعد حين ، ودلالته أيضاً أن اللجان المانحة لا يصادفها التوفيق أو النصفة فى بعض الحالات ، وخير ما تصنعه أنها تقدم غالباً الحسن ولا تضمن لك الأحسن ، وأنها لجان فى النهاية بشرية يعترىها ما يعترى البشر من نوازع وأميال ، وقد عرفنا أديباً أحرزوا نوبل بموازين غير موازين الاستحقاق المطلق ، وأنهم «متوسطون» ، وأن كثيرين من أديبائنا يفوقونهم ، ونجيب محفوظ - فى رأينا روائياً- أفضل من كثيرين استحقوها ، لكنها التقسيمات الإقليمية ، التى تدفع إقليمياً إلى دائرة الضوء ، وتحجب أقاليم أخرى !!

وثمة جوائز أخرى ربما تضارع نوبل ، وهى جوائز سخية بكل المقاييس أديباً ومادياً ، وبعضها - فى إسبانيا مثلاً - يخول لحائزها أن يتفرغ تماماً للأدب ، وأن تدركه حرفة الأدب بالمعنى الأوروبى لهذه الكلمة ؛ إذ هى عندنا قرين الخصاصة والبؤس ، حسبنا أن رجلاً مثل أنطونيو جالا - وقد بلغ الستين هذا العام - يعيش من الجوائز ومن دخل كتبه عيشة أهل الفن المرئى ، ويعيش فى قصر اشتراه من المغنى العالمى : خوليو إجلسياس ، وتطبع كتبه مسرحاً ورواية ومقالات وشعراً بالميون ولا نقول بالآلاف .

دلالة مثل هذه الظاهرة أن التقدير الأدبى مشفوع بالتقدير المادى ، وأن الأدب وظيفة اجتماعية ينبغى أن تذلل لذويها المستحقين ، أرقى المنازل الاجتماعية فى الأمة ، ودلالتها أيضاً أن القراء - قبل الجائزة ، وهم كثير فى الأمم الراقية - يخولون لكتابهم مثل هذه المكانة الباذخة .

وما قلناه عن الجوائز عموماً يصلح قوله عن الجوائز فى مصر ، التى فطنت مبكراً - فى محيطها الإقليمى - إلى تقدير أدبائها ومفكرها ، فاستنت نظام الجوائز قبل الثورة وبعدها ، تمثل هذا «البعء» فى جوائز الدولة التشجيعية والتقديرية ، منذ سنة ١٩٥٨ حتى الآن . . . ولحسن الحظ أنه كانت لاتزال تعيش بيننا قسم شامخة من الأدباء والمفكرين - أدباء النهضة ومفكرها الكبار : طه حسين ، لطفى السيد ، العقاد ، الحكيم وإخوان هذا الطراز ، ومثل هؤلاء منحوا الجائزة كثيراً من قدرها ، ولسنا بذلك نغمط الآخرين حقوقهم ، وإنما من أنصار الماضى ولا نرى الحاضر أو المستقبل ، بل نعى أن أمثال هؤلاء ليسوا محل حجاج ، بل تكاد الآراء - مهما اشتطت - أن تتفق عليهم وعلى نظرائهم من أبناء الجيل الثانى ، حتى فى الجائزة التشجيعية - آنذاك - التى كانت تزهر بمسئقيها ، ولأنها كانت لاتزال قيمة أدبية ومادية .

لكن ثمة بعض الملاحظات التى لاتبطل قيمة الجوائز ولا تدفعنا إلى إلغائها ؛ لأنه شر بكل المقاييس ، بل تحفزنا إلى مزيد من الضبط والإتقان .

أولى هذه الملاحظات أن القيمة المادية غدت مضحكة ، ولاتظن أن التقدير الأدبى وحده حسب الأديب ، فليس الأديب جماداً ، بل هو رجل مشتعل الخوارج ، يتبوأ مكانة المرء الراقى فى الأسرة الاجتماعية ، وبعض الجوائز التى يمنحها المجلس الأعلى للشقافة الآن أربعة أضعاف الجائزة التشجيعية ، ولا تجد أحياناً من يتقدم إليها ، زهادة فى القيمة المادية فى زمن سطا فيه التضخم ، وهبطت القيمة السعرية للعملة ، وليس هذا وحده ، بل إن الجائزة التشجيعية - وهذه هى الملاحظة الثانية - يتقدم لها من تجاوزوا طور التشجيع ، بعضهم خنق الستين بالفعل ، فأى تشجيع تنتظره اللجنة المانحة منه ، أو ينتظر هو من الجائزة الهزيلة هذه .

وثالثة هذه الملاحظات أن أعضاء المجلس المانحين للجائزة ليسوا جميعاً من أهل الاختصاص ، فيما يتصل بالتقديرية ، فثمة موظفون وأعضاء من الخارج ، ولذلك يكتفى المرشحون عادة بترشيح مجالس الجامعة أو الهيئات التى رشحتهم ، ومعهم بعض الحق فى هذا .

رابعة الملاحظات أن الجوائز الأدبية التقديرية يخالطها شىء من عدم التقدير

الحقيقى ؛ نظراً لاتساع حقل العلوم الاجتماعية مثلاً كاللغة والفقه، والفلسفة والاجتماع والتاريخ وما إلى ذلك ، وكله جائزة واحدة أو تتعدد أشخاصاً لا مجالات ، ومثل هذا ظالم لذوى هذا الاختصاص .

الخامسة أن جوائز الدراسة الأدبية غلبت بعض الشيء على الإبداع - فى التقديرية - ربما شحب الإبداع بعض الشيء ، غير أن ثمة مبدعين ، يجب ، أن يؤخذوا فى الاعتبار أو على الأقل يقرن الإبداع بالدرس ، وفى هذا الصدد يقال أيضاً إن بعض المبدعين ؛ خاصة فى الشعر قد أحرزوا الجائزة التقديرية وليسوا بمستحقينها بحال ، بل ليسوا يستحقون التشجيعية ، لكنه سوء التقدير .

سادسة الملاحظات أن هيئات ترى أن تمثل اللجان فى إحراز الجوائز ، وهذا مطلب أشكل بالسياسة لا بالأدب ، وهو أمر يجعل الجائزة تتجه إلى الهيئة لا إلى المستحق ، وثمة أسماء كبيرة - إعلامياً أو وظيفياً - وصلت إليها التقديرية ، والأمة واجمة إزاء هذا التقدير الذى أفرغ الجائزة من حقيقتها ، ولا نريد تسمية هذه الهيئة أو غيرها فهى معروفة بسيماها للمتتبع .

وداخل هذا الإطار تمنح الجائزة أحياناً لبعض رجال الدولة ، وثمة شبهة واضحة فى هذا التقدير ، بغض النظر عن أنهم يستحقونها أم لا ، ومن العجب أن تختلط الجوائز اختلاطاً فاحشاً ، حين يحرز أحدهم وهو وزير سابق - عليه رحمة الله - جائزة الدولة التقديرية فى الآداب ، وهو فقيه أولى به جائزة العلوم الاجتماعية ، إذا حولته معارفه فى هذا الصدد .

الملاحظة السابعة أن بعض الجوائز التشجيعية كالشعر ربما تخرج عن إطارها حين تتجه مثلاً - وهو أمر نراه قريباً جداً - إلى أصحاب قصيدة النثر ، وهو اتجاه سنراه فى السنوات القادمة ، حيث تنشر كتابات هؤلاء على أنها دواوين ماهرة بكلمة : شعر فلان ، متمسحين بانعدام الأجناس الأدبية ، وأن كل كلام هو إنتاج أدبى ، وبقياهم يغدو الكلام وهو إنتاج والتبول - عفواً - وهو إنتاج كذلك شيئاً واحداً، كما ننتظر أيضاً أن تمنح هذه الجائزة للزجل ، ونحن نقترح للزجل جائزة خاصة باسمه بعيدة عن الشعر الفصيح ، لا تقليلًا من قيمة الزجل ، بل وضعًا للأشياء فى نصابها الصحيح ، وربما كان ما نقوله رجماً بالغيب - وليته كذلك - وإن كان هذا «الليت» بعيداً !!

تخطت هذه الجوائز بعض المستحقين وستظل كذلك ، ركوناً إلى الطبيعة الإنسانية ، وبعض هؤلاء خامرهم كثير من الأسى ، وهو عسير بالنسبة للأدباء والمفكرين - لكن عزاءهم - وهو عزيز غير مرتخص - أن شملهم القراء بمزيد من الاهتمام ، وأن كتبهم لاتزال طلبه القارئ المتلث ، وأن التقدير شيء ، والشهرة شيء آخر ، وأن التقدير يجب أن يكون هم الكاتب الأصيل ، وربما تحاول اللجان أن تعوض ما فاتها بعد الأوان ، فتمنح الجائزة لأسماء الراحلين ، وهو تقليد حسن لا بأس به . أسوة بما حدث في مصر . . حاولت بعض الدول العربية أن تقدم جوائزها على مستوى قومي عربى ، فقامت جائزة الملك فيصل العالمية ، وجائزة العويس ، والبابطين ، ومحمد حسن فقى ، وهى تنحو فى مجملها نحو الجوائز المصرية ، وإن كانت قيمتها المادية جيدة ، وكان لأدباء مصر ومفكرها سهم راجح فى إحراز هذه الجوائز ، وهى - كما هو واضح - جوائز أهلية يقوم بها أهل اليسار ، والمقدرين للفكر نيابة عن الأمة العربية كلها ، ولا نقول نيابة عن الدول ؛ لأن بعض هذه الدول لها جوائزها المرصودة كذلك كجائزة التقدم العلمى ، بالكويت ، وجائزة صدام وغيرهما من الجوائز .

وفضيلة هذه الجوائز أنها تمنح بعض الأمل ، فى تقدير الفكر والأدب ، وأنها تسد بعض النقص فى الجوائز الإقليمية أو الدولية ، وهو أمر يحمد بكل حال .

ربما نقترح - إذا جاز الاقتراح - أن تنهض مصر بدورها المنوط بها فى المنطقة ، فترفع قيمة جوائزها المادية أسوةً بما حدث فى السينما والمسرح ، وأن ترى أن الأدب أبو الفنون ، وأن الفكر أساس كل شيء حتى فى السينما ، التى يحصد ذوها التقدير من جمهرة المشاهدين ، وهو نوع من القصد الطبيعى ؛ لأن الأدب والفكر فى حاجة فى مكث ، وليس بكثير أن نقدم لأديب ومفكر أفنيا حياتهما فى خدمة الأمة مائة ألف جنيه وأكثر جائزة تقديرية ، تزيد مع التضخم تبعاً ، وأن تصل الجائزة التشجيعية إلى عشرة آلاف على الأقل ، وتقوم جائزة وسطى تصل خمسين ألف ، يطلق عليها ما شئنا من الأسماء ، نأياً عن مهزلة التشجيع بعد الستين ، وأن تظل الجائزة التقديرية أرفع الجوائز ، لا جائزة النيل أو غيرها من الجوائز ؛ لئلا نسيء إلى الماضى الجليل فى رموزه : طه حسين والعقاد والحكيم وإخوان هذا الطراز .

المصطلحات الأدبية الحديثة

هذا كتاب مفهوم !

والكتب النقدية المفهومة غدت نادرة نادرة لعجمة فى الفكر والأداء نظنها فى أصحابها ، الذين يخاطبوننا بلغتنا ، فلا نفهمهم ، ولا نخالهم فاهمين ما يكتبون!!

مؤلف هذا الكتاب د. محمد عنانى امتلك فكرته - بلاريب - فامتلك التعبير عنها بأيسر طريق ، وهو رجل غنى عن التعريف ، فاسمه يتردد بين الأوساط الأدبية والنقدية مبدعاً ومترجماً ، ودارساً ، منذ حين ، وكتابات لها رصيد هائل من مسئولية الكلمة عنده ، وأمانته فى أداها ، ومن الأمانة والمسئولية حسن «البيان» كما أن لها رصيذاً هائلاً أيضاً لدى المتلقين قراءً ونقاداً ، والرجل أقابله منذ أمد ، من خلال ما يكتب ، فيربو رصيد الاهتمام والإعجاب عندى ، وأقابله شخصياً - على ندره نادرة - فألمح من طبعه الدمث ، ورهافة حسه ، وحلو منطق ، وغيرته على لسانه ما يضاعف هذا الرصيد .

والدكتور محمد عنانى بدع بين أساتذة اللغات الأجنبية عندنا ؛ لأنه أديب فى لغته أولاً ، وعاشق لها ، ونعتقد أن إتقانه وعشقه للغته الأم وراء إتقانه اللغة الأجنبية ، وهذا معهود بين أساتذة اللغات فى كل الدنيا .

محمد عنانى فى كتابه المصطلحات الأدبية الحديثة كاتب مفهوم ، ودقيق وواقف على تراث أمته ، يستأنس به فى مشكلات المصطلح ، فيعينه هذا التراث ، فى تأصيله وحدائمه ، والمؤلف يحاول فى خلال كتابه كله أن يتحدث لغة مشتركة ما أمكن ؛ لأن وحدة المصطلح ضرورية فى برج بابل ، الذى تتشاجر فيه المصطلحات تبعاً لثقافة الناقد أو المترجم وفى المؤلف شجاعة محمودة حين يعرض لبعض المصطلحات الذائعة كالأشكالية والتناص ، والخطاب ، والمقاربة وغيرها ليراهها غير دقيقة ، ولم يشأ أن تجرفه الموجة وهو أستاذ الأدب الإنجليزى ، بل

اعتصم بيانه وبيان لغته ، ولم يخش الاتهام بالتخلف ، وفصول الكتاب خلاصة وافية للمصطلحات الأدبية الحديثة ، ودراسة دقيقة لها ، وإن كانت موجزة لكنها محكمة ، وتحظى بحواشٍ شديدة الأهمية ، فيها النفحة الشخصية للمؤلف ، وفيها الرأي الصائب حين تشتجر الآراء والمذاهب .

وفى الكتاب مجال لاختلاف الآراء وربما يكون الإشارة إليها من باب التقدير للكتاب وصاحبه فالشعر المرسل - فى رأينا - ليس الشعر الحر ، بمفهومه الحديث ؛ لأن المرسل كل بيت بقافية ، ولم يكن مخترعه على أحمد باكثر فى ترجمته كما ذكر المؤلف ، بل إنه مسبوق بشكرى والمازنى وساهم معهما العقاد وإن كان لم ينشر منه شيئاً ، بل نفر منه فيما بعد ، ومسألة الوحدة العضوية مسبوق بها محمود أمين العالم من العقاد ، وابن طباطبا قديماً ، وإن كانت دقة المؤلف - وهو شاعر - جعلته لا يؤمن بهذه العضوية فى الشعر الغنائى ، ونحن نشاركه عدم الإيمان بها - عضويًا - ونؤمن معه بنوع من الوحدة ربما تكون صفتها «الاحتمالية» لا الهندسية ولا العضوية ، أو هى «وحدة» شرحها شيخنا أبو فهر محمود شاكر فى كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» علينا جيد ، ومع هذا الاختلاف . . فهناك «اصطلاح» بينى وبين المؤلف وواشجة نسب حميمة من حب العربية و«بيانها» والغيرة عليها ، حقيق أن يمد جسور التواصل والتقدير ، وعنانى بكل هذا محمود وأثير .

مشكلة الأدباء الكبار

معظم الأدباء الكبار فى بلادنا مشكلة ضخمة ! وأكاد أقول الكبار فى أى مجال بصرف النظر عن التخصص ، فهم لا يسمحون لمن دونهم إلا بالتسبيح بآلائهم ، والتغنى بأمجادهم ، والذوبان فى أشخاصهم ، حتى ولو كان هذا الإطراء كذباً ورياء ، بل يبلغ بهم الأمر أحياناً إلى أنهم يصدقون هذا النفاق ناسين أو متناسين بواعثه وطبيعته ، لأنهم سوغوا لأنفسهم هذا .

ولعل الكبار معذورون فى تلك الخليقة ؛ فوهج الحياة يبرد فى أوصالهم ، فيستعيدون بالثناء المفرط والمجاملات الجوفاء شيئاً من حرارة ، والمؤسف أن الأجيال التالية لهم قلدوهم فى تلك الصفة المنكرة ، فلا ترضى إلا بالمدح المستفيض ، وغدت المسألة منظمة ومحسوبة ، وبقدر ماتبذل من لسانك - رياءً ومجاملَةً - تجذ الجزء ، والجزء كذلك محسوب بدقة : التمكين من نشر كلامك فى وسائل الإعلام ، وغاب لهذا النقد المنصف ، وبات الكلام وسطاً متشابهاً لا لون له ولا حياة !!

وكان المنطقى أن يكون سلوك الكبار على غير ما هو عليه الآن ؛ لأنهم - أو لأن كثيرين منهم - أدركوا طرفاً من حياة جيل الأساتذة الرواد ، وقد كانوا أساتذة ورواداً بحق فى أدبهم وسلوكهم ، جهروا بآرائهم حتى فى أصدقاتهم ومكنوا - حتى لمخالفهم فى رأى النقدى والاتجاه السياسى - أن يذيعوا ما يرونه ، وغدا هذا الاختلاف هو الأساس الأول الذين ينطلقون منه ، قبل أن يكون الاتفاق هو المنطلق ، والمحصلة لكل هذا هو الازدهار الذى شهدته الحياة المصرية فى كل مرافق حياتها أدباً ، وفكراً ، ورجالاً .

لقد أتيت لى - وأنا أعد رسالتى للماجستير عن شعر المازنى - أن أعود إلى الدوريات القديمة ، وقد شهدت عجباً ملاً نفسى إعجاباً بذلك الجيل الذى لن يتكرر ، وحزناً على جيلنا وجيل كثير من أساتذتنا ، كان العقاد ينشر مقالات

نارية ضد خصومه من السياسيين والأدباء ، ويرد هؤلاء الساسة والأدباء بمقالات
حامية الأوار ، تناولت شخص العقاد وعرضه وأدبه ، ولم يجزع العقاد ولم
يمرض - كما يحدث الآن لبعض الأساتذة الكبار ولا داعى لذكر أسمائهم كيلا
يمرضوا مرة أخرى - بل ظل ينافح عن مكانته ورأيه ، واستمر طول حياته غرضاً
للسهام التى تتشاهه ولكنها تزيد قوة ، ونموذج آخر هو هيكى باشا ، الذى كان
ينشر النقد ضده فى صحيفته «السياسة الأسبوعية» - وكان يرأس تحريرها !!

أين هذا مما نحن فيه الآن !! ؟ لقد غلب رأى الواحد الرأى المؤيد المقرظ دائماً
وفى إفراط ، وأصبح العرف السائد أن الكبار ذاتهم مصونة وكذلك من تلاهم
بالتبعية ، وانتقلت هذه الآفة - للأسف الشديدة - إلى بعض أساتذة الجامعة
الكبار ؛ إذ يربون تلاميذهم فى الدراسات العليا على تلك الخصلة النكراء ، فلا
مخالفة فى الرأى بل التسليم المطلق والإعجاب الجم ، والثناء الهائل على الأستاذ ،
وإن كان الأستاذ يقول لطلابه لا بأس من المخالفة ، فإنه يقول بلسانه ، والويل
للطالب الذى لا يعرف مقتضى الحال ، ويدرك أن مثل هذا الكلام يقال فقط
للاستهلاك المحلى - كما يقولون - والحاصل هو تخريج نكرات ، وهذا - كما
يخيل لى - هو المطلوب فى حقل الأدب والجامعة .

وينبغى ألا يجزع الأساتذة الكبار ؛ فهم محل إكبارنا ما سمحوا لنا بأن نقول
رأينا فيهم ، وأن يشجعونا على ذلك ، وليعملوا - وليس فى هذا نصيحة لهم
بقدر ما هو رجاء إليهم - أنهم حصون باذخة ، تزيدها السهام المصوبة نحوها قوة
ومتانة ، وأنا امتداد لهم إلا فى جزعهم من النقد ، ومرضهم منه ، وأن الحوار
الحر الذى ساد الحياة منذ قرن يجب أن يعود ، وليعلم الجيل التالى لهم أن ما يبقى
منهم إنما يبقى بالنقد ، وأن عليهم أن يعرضوا عن المدح الزائف ، وأن يأخذوا
أسوتهم من جيل الرواد لا جيل الكبار الآن .

الكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح

القطيعة مع التراث إلا فى أضيق الحدود ، لا وجود للبارودى أو شوقى أو العقاد أو جماعة أبوللو أو حركة الشعر الحر فى مصر والعراق !! فى مقابلها : أنا الشعر ، أنا الإضافة ، أنا الإبداع ، أنا جماعة شعر ، أنا أدونيس ، ولا شىء غيرى !! تلك هى جملة من الدعاوى التى يطلقها على أحمد سعيد أو «أدونيس» ، وهى دعاوى غريبة ، وأغرب منها من يلتفت إليها ويصدقها ، لكننا فى زمن زاخر بالعجائب «حتى ليس فيه عجائب» على رأى أبى تمام ، وقد ظل الرجل حوالى نصف قرن يردد هذه المقولات التى سمعنا شبيها لها من غلاة المستشرقين ، الذين لا يرون سوى قيمة تاريخية لا فنية حتى فى الشعر الجاهلى ، ومثل هؤلاء لا خطر لحكمهم فى أدب ولا نقد ، لكن الخطر كامن فى أن رجلاً منا ينطق العربية ، ويردد مثل هذه المقولات ، ويجد الحفاوة فى مصر ، وقد نعت أهلها قديماً زمن الوحدة مع سوريا بأنهم «غربان أفريقيا الجائعة» وإذا واجهنا كلامه نتهم بالعصبية والإقليمية الضيقة ، وهو «المحروس» من عين هذه العصبية والإقليمية !!

لا جديد فيما قاله الرجل فى معرض الكتاب ، فتلك شنشنة قديمة ، وكان المظنون أن تكفكف السن المستعلية من غرب دعاواه فيركن إلى شىء من المراجعة ، لكنها «حالة نفسية» تعادى العربية وديوانها ، فتخلط أوراق القصيدة الموزونة والحرّة وما يسمى قصيدة النثر ، وكله عند العرب «والفينيقيين» صابون ! .

وخطر هذه الدعوى أنها جمعت العجزة وذوى العاهات والمثوفين (أصحاب الآفة) الذين ليس فى ذرعهم إقامة الكلام وقدمتهم شعراء «المستقبل» ، وفى القريب سيكون القرآن «شعراً» ربما لأن الوزن غير ضرورى !! .

وقد أحسن الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى فى رده على بعض ما قاله أدونيس فى الندوة وفى الأهرام ، وهو لا يدافع عن حركة الشعر الحر ، وإن بدا هذا لأول وهلة ، ولا عن الشعر المصرى قبل جيله ، بل إنه يدافع عن حركة التاريخ وحركة الإبداع ، دون عصبية عرقية تسد منافذ الفهم ، وقد شفى صدور قوم مؤمنين .

إن هذا «الجهاد» المخلص من أدونيس فى هدم التراث ، وهدم الرموز الكبرى فى مصر والعراق لن يكون باعته الموضوعية ، ولا الرغبة فى نفي المحاكاة ، بل بواعثه فى نفس الرجل وهى ليست فى خدمة هذه الأمة ولا لغتها ولا شعرها بلاريب ، لكن هذا «الجهاد» كالمصل الذى يكشف عن مناعة جسم الأمة التى غالبت أمصلاً كثيرة فغلبتها ، وهى تلجأ فى لحظات صمودها إلى ما يريد أدونيس نفيه منها ، ولن تلجأ إلى أدونيس ولا إلى شيعته ؛ لأنهم خارج التاريخ وخارج الزمن والمستقبل منه بالذات . والكلمة الأخيرة للتاريخ والنقد الصحيح ، لا للتاريخ «الشعوبى» والنقد المثوف .

عدنا واعد المهرجان !!

عدنا ، والعود أحمد ، ولعله يكون أحمد منه فى السنوات القلائل الماضية ، وأن يستعيد المعرض زهوه السابق إن لم يكن فى الطوق الزيادة عليه ، وإنى لأراه اليوم وقد اكتمل عقده الثالث ، وهو سن النضج والاستواء ، دون تجاعيد ، ودون ترهل ، نقول ذلك دون مواربة ؛ لأن معرض الكتاب أخيراً ينبغي إعادة النظر فيه ، دون أن نفتئت على حق المشرف عليه الأخ العزيز الدكتور سمير سرحان ؛ فالرجل يبذل أقصى طاقاته ، ولا نريد أن نوجه للمعرض نقداً قبل أن يبدأ ، بل نريد له إحساناً كان قد بلغه قبل عشر سنوات مثلاً ، ونود الزيادة . حسن أن يظل المعرض يحمل اسمه «معرض الكتاب» وعليه يكون التركيز على الكتاب وما يتعلق به ، لا أن يفرغ المعرض من محتواه ، وتزاحمه فنون أخرى مكانها مهرجانات أخرى هى به أشبه ، ولم يبق إلا «السيرك» ليشارك فى معرض الكتاب ، ولعل أصحابه يطالبون بهذا الحق وفى هذا الإطار «الكتاب» تنظم ندوات وأمسيات تدور حوله ، فيعود للمعرض جلاله ووقاره المفتقد فى السنوات الأخيرة ؛ لأن المتردد فقد حماسه حين وجد «الزفة» طاغية ، وتوارى الكتاب ، وتنظيم الندوات ينبغي أن يخضع للجنة تتعدد فيها الآراء لا أن تكون لجنة سئم الناس وجوهها كل عام لأنها تعرف سلفاً ماذا ترى وماذا تقدم ، وكذلك المدعوون فيها ، وجوه مستهلكة ، رأينا بأعيننا كيف ينصرف الناس عنهم ، علينا أن نبحث عن وجوه جديدة - وهى كثيرة ولا تعرض نفسها فى سوق الإعلام - تقدم جديداً ومخالفًا ، وأن نقلل ما أمكن من الوزراء ، حيث نراهم كل يوم فى وسائل الإعلام ، ومن يشابه الوزراء من رواد الجامعات الإعلامية .

يجب أيضاً ألا تتضارب مواعيد الندوات ، وأن تمتد واحدة على حساب الأخرى ، وأن يختار موعد حسن لأمسيات الشعر التى خلت أخيراً من جلالها واحترامها وأصبحت غاصة بغير الشعراء لغياب المصطلح الشعرى وأن تخلو

الدعوات أيضاً من أسماء عربية تطرز بها بطاقات الدعوة ، دون أن تكلف نفسها عناء الاعتذار ، وهى فى أغلبها أسماء محترقة إلا لدى الشلل المتفعمة منها . هل نطمح إلى أن يكون فى المعرض سلطة الضبط القضائى «لحرامية» الكتب ؛ وبخاصة كتب التراث ؛ حيث نجد بأعيننا كتبنا تسرق ، وهذا العمل ليس مسئولاً عنه هيئة الكتاب ، بل لابد من جهة معاونة لها هذه الصفة ، وهل نأمل فى أن ندخل المعرض بالسيارة ، حيث نشترى كتبنا فى «كراتين» يصعب حملها خارج المعرض ، وأن نتخذ فى ذلك إجراءات أمنية تكفل السلامة والأمان ، كما نود أن يفسح المعرض مكاناً لائقاً لأصحاب الكتب القديمة ، «سور الأزيكية» حيث نعثر فيه على كتب نادرة ، وبأسعار زهيدة مقارنة بالأسعار الفلكية فى سرايات العرض ، وهذه الكتب القديمة ربما لا تطبع مرة أخرى فى غالب الأحيان ، وهل نطمح فى أن نرى الكتب الأجنبية خاصة من اللغات غير الذائعة معروضة ؛ لأن الكتاب الإشباني مثلاً يكاد يكون مفقوداً مقارنة بنظيره الإنجليزى والفرنسى . وأن تمثل دور العرض من الدول الإسلامية ، حيث يكثُر بيننا الآن من يقرأون بالتركية والفارسية والسواحلية وغيرها . وأن نرى الكتاب المسموع والمرئى كما نرى فى بلاد أخرى هذه المطاعم قريبة التناول والتحقيق ، إذا خلصت النيات وصحت العزائم ، وكان بجوار الدكتور سمير سرحان المستشارون الأمناء ، ونحن نود له التوفيق ، واطراد التقدم ، ونود أن نرى الجلال والتقدير ، الذى كان يغمرنا قبل عشر سنوات ، حين كنا نزور المعرض ، ونحرص على حضور ندواته ، وما ذلك بعزيز .